

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجذ والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضاً أمره إلى الله، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزلهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم ما من الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمته وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً، وكان رحيله عنه يوم الجمعة
الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصراً مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذليل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدادها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية نداءها، وإطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيوان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفر عنه بأيان الإيوان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشأن، والذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنان، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحاتر غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضافت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصيح ندامتنا،
وتسبح علامتنا، وتسبح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها
كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها
استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب
والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى
والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى
والمربع، والمرخم والمخرم، والمحلل والمحرم، والصور والاشكال، والانظار
والأمثال، والأشبه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها
صور الحواريين في حوارهم، والأخبار في أخبارهم والرايين في
صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها،
ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت
والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم، وصورة الكباش
والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح،
وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام
الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج
الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود،
وأضافوا إلى متعدهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج
الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا
نفوت، وعننا ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع
ولاننازل، ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا
ما استخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، وما انتهوا بل تناهوا،
ونصبوا المجانيق على الأسوار، وسترنا بظلمات الستائر وجوه الأنوار،
واستشاطت شياطينهم، وسرحت سرايينهم، وطغت طواغيتهم،
وأصلت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم
قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى
السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حضرًا عميقًا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقًا، وفرقوا على كل برج فريقيا، وجعلوا إلى كل طارق بالردى للرد طريقًا، وأعادوا كل نهج واسع بما وعروه وعوروه به مضيقًا، وتحمل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقًا، وخرج جماعة منهم على سبيل اليزك فأدجلوا ليلاً، واعترضوا عدة من أصحابنا غارة، على طريق السلامة ماره، وكان قد شذ من المقدمة المنصورة أمير تقدم، وماحرز، ولاتحزم، وماظن أن قدامه من له جراءة الإقدام، ومن يعتقد أن ربح كفره خسارة الاسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين حسن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضع يعرف بالقبيبات، فاستشهد رحمه الله، ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمه ثم أقبل باقبال سلطانه وأبطال شجعانه، واقبال أولاده، وأخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقة الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى، وقال إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا، وأي يد له عندنا إذا أيدنا، وإنه مكث في أيدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخليه، وخلت الفرنج به متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بالقبول القلوب، كيف لا يهتم بفتح البيت الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشفاء التي هي على رأسها كالتاج، وفيه ومضى البارق، ومضى البراق، وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير في الأفاق، ومن أبوابه باب الرحمة، الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول إلى الخلود، وفيه كرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أول القبلتين، وثاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعتقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة، فقال عز من قائل: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) (٤٧) وله فضائل ومناقب لا تحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب) (٤٨) ولنهاره التعب، ولليلة المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى بنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان » وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباحجه، وأبهج مزايينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله: (الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ما وثق على استعادة آلائه موثيقه وألياه، وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصرة.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السلطان على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القمامة تقوم القيامة، وبحب سلامتها تطفى السلامة، وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجلد، وأبصر في شماليه أرضاً رضيها للحصار، متسعة المجال للأسباع والابصار، وممكنة للدنو منه للنقب إن صار من حيز الانصار، فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمام جموعهم المحسورة المحشورة، ويبرزون ويبارزون، ويطاعنون ويحاجزون، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائم ينهلون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)^(٤٩) ومن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزا الأمير عز الدين عيسى ابن مالك كان أبوه صاحب قلعة جعبر، فانه حاز لشهادته في المحشر المفخر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكوثر، وكان في كل يوم يفرس فوارس، ويلقى ببشر وجهه وجوه المنون العوابس، فاغتم المسلمون من صرعته، وهان عليهم اتلاف المهج بعد اتلاف مهجته، فركبوا أكتاف الرهج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه، والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه وأحرقوه، وصدقوا وعد الله في القتال لأعدائه وصدقوه، ولما غضبتهم الحرب، وقع السور واتسع النقب، فصعب عليهم الهين وهان لنا الصعب، وعقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلا الإستئذان ، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم، وقال: لاأخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلا أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلا الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلم ولاسلامه، ولا نعنة ولاكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولانلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح غيره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبة، ونترك عليكم في سينا السبه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوان نعميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ما بين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإننا نعطبها ولانعطيها، وإما الذراري فإننا نسارع إلى اعدامها ولانستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولايقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعمار، ولاانضار ولاانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأى فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الريح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه ف قيل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة رؤوسهم ورئيسهم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو: عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغيرة أو صغير ديناران، الذكر والأنثى فيهما سيان، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدمو الداوية والاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج عن بيته آمناً، ولم يعد إليه ساكناً، وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم والغصب لا الوديعه، وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير، ومقدم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الواجدين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكن تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفياً في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته، فخرج مخفياً بزى الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعه مطاعة لم تقابل بالرد، والنقاب الأكبر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الدين كوكبري أن منهم جماعة من أرمن الرها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادّعى بها لعدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقوم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سباحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب، وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين في كل ديوان منها عدّة من النواب المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فذكر لي من لأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطأ لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لأمناءه، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق إيسار ينتظر انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدره تحدر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياء وأتباع، فاستعازت بالسلطان فأعازها، ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسقاطها وأعدادها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى، وهى ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نابلس، موكلأ به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنوآها محوطة وبرأيها منوطه، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صبور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلّم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أو ان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخنا، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضع من منهج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافرا، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومجياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تمخض، والألسنة بالابتهاج إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي: (شرع لكم من الدين ماوصى) (٥٠) وهنئي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صباحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدمي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها. ويشرقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذا المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصر الامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عز يومه ماحياً ذل أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس، وعبدة الصليب، ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين، فكأن الله شرف هذه الامة وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: (ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم) (٥٢) وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان، واخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول: هو الله أحد، وأعان الله بانزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونشراً، وعبد الله في البيت المقدس سراً وجهرأ، وملكت بلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجدأ وبرأ وبحراً، وملئت اسلاما وكانت قد ملئت كفرأ، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرأ، والحمد لله شكراً، حمداً يجدد للاسلام كل يوم نصراً، ويزيد وجوه أهله بشري، فتوجه بشراً، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وانه لا بد من تطهير الأرض المقدسة برجس دمائهم، وقتل رجالمهم وسبي ذراريهم ونسائهم، ولما أيسوا من النجاة، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة، خوفاً بقتل الأساري المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء يهدم واحراق واتلاف، وعرف ان جهلمهم يحملهم على كل مكر شنيع، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع، وبذلوا اطلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفداء ومازالوا يبتهلون ويضرعون، ويدلون ويخشعون، حتى استقر الأمر أنهم يفادون، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة اليها في مناخها، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل

الايان، وصوفحت للوفاء بعهدا المجدد بالايان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب ليلة المعراج، وتجلي اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزال ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبذل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعافل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلا صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطاعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جاحها منسرحة».

ومن كتاب آخر: «فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمن الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجثنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيت دعوتها، وأصببت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرت عين الراني».

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أيينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجهاجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنث الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكننا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهرأ، واغتصب من الاسلام قهراً، واردد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمراً، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتح به بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايناراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصر، ومكنا من قلبها— وإن كان من الحجر— المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذلل البطرک، وأقصى من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلي الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه وشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكننا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالفهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبدلون الأذعان، حتى يسلموا المكان، فقليل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسارى المسلمين، وهم ألوف، وعرفنا انهم لا يقصرون في الشرّ فإن جهلهم معروف، فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشترؤا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف، ملبسهم، وسلموا القدس، فأعدناه إلى القدس، وطهرناه من الرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه، وطال في يد الكفر أسره وسجنه، واستهل بغير أيماننا مزنه، وأنار يمنه، وعاد باحساننا حسنه، وزال بنا خوفه وزاد أمنه، وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجوناً وبرجس الشرك مشحوناً، حتى أعاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقه، وأعدم فرقه.

وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم له نظير، وأفق الدين به منيف منير، وشرف أيماننا به كثير، وهو إمام فتوحنا المدخرة لنا وما لها بتأييد الله تأخير.

فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنييه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه السلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالاسوار، وغارت الصخور للصخرة المباركة فجذّت في انقاذها من الاسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاینوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامت المنجنيقات على عصابتها حد الرجم، وواقعت ثنايا شرفاته

باهتم، وتطائرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم
السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب
الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدسة الصخور، وطارت من أوكار
المجانيق كأنها الصقور، فما أسر البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر،
واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة من
قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعز
الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من
أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين
وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول
الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله
عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد
للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل
الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايان، وصلى محراب الاسلام في المحراب
الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم،
وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به ماتم
الكفر وعرس الاسلام، وعادها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد
الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق
الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا،
فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد
إلى مأمنه، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعته، وعلا سنا
السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة،
وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس
مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايان باشرة، ووجوه أهل

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضلته هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب».

فصل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرا بدمشق لعارض مرض من الله بشفائه فمن جملة ما كتب السلطان إليه: «أما الفتح فمن جملة بركات همته، وأثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهل ما سجل أهل الدهر بأنه صعب، واهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهيب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا بهذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بدّل الكفر بالايان، والناقوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه، والحمد لله، ثم الحمد لله، وما كان يعوزنا ويعوزه إلا حضور المجلس السامي أسماء الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه، ولا للانس لقاء إلا بأنس لقاءه، وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه، وحسن آياته، والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصة، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، وما حظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما أنتى روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته، وينعش قوّته، ويقوّي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتدييره».

ومن كتاب آخر: «نصرنا الله بملائكته المسومين، وأوليائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبحار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لا يبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدا للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلبو الوجوه بشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى (باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وظهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركناً، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدنا لذرته، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضرة، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايان، وجددت بعهدا صفة الايان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمد لله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: «فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، ورب فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهيئ متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمنى استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواده، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاده، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجلت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيها لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر: «البيت المقدس صار مقدساً، وأصبح للاسلام معترساً، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيوان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوا المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوا الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلاً بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنازا، بعد أن كان للمقصرين المصلين ناراً داراً، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصبح لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنج المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مافع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسمى عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، واعلاء ما كان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع الاسلام فيه شمالاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بالسنة عذبتها نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبوية بتجديد عهودها، وشهد مقام المعراج وموطىء براقه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: «تقلص ظل الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه، وادلجت السيوف والأجال نائمة، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقب السور: «فأخلي السور من السيارة، والحرب من النظاره، وأمکن النقب أن يسفر للحرب النقب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض».

ثم قال: واستقرت على الأعلى أقسامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما يشفى بالماء غلغهم، وملك الاسلام خطة كان عهدده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهدده المعهود وأقام له من الائمة من توفيه ورده المورد، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينظرن، والكواكب منها للطرب ينتشرن، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس، وكان التثليث يقعددها، وجهرت الالسنه بالله أكبر وكان سحر

الكفر يقعدّها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يجارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ريباً سلقته فانضج قلوبها بالاكْتفاء والاقتصار، وكانت الخواطر ريباً غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر.

ووصف فيه يوم حطين فقال: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يجرّضهم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، ويقاثلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقاً ينون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدون سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلا القمص، وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، ومليثاً يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، وكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعا الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

فصل

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو
مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحثي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهدكم
وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزلزل الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى
أمالكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا
وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذسرت عنكم ما سمعت له حسا
وإن نهاري صار ليلا بعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا
بكيث على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزيمته القعسى
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدس
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وظهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شعاع في الأفق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا
وكم لبني أيوب عبد كعنت
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا
وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنهما مرسى

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبين كلهما
بسيك ألفى أنه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف وبينى وغزة
تخذت بها بين الطلي والطبي عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أريد وأرجسا
وصار بصور عصابة يرقبونكم
فلا تبطنوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقي واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولاتنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعماد أيضا من
جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:
قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحته فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذالجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخل ساحل هذا الشام أجمعه
من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منه نفسا ولا نفسا
فإنهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى
تقصدا طرا بلسافانزل على قدسا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:
أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى
وصيته في جميع الأرض جواب
ما كان يخطر في بال تصور
واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه الملوك الأقدمون وقد
مضت على الناس من بلواه أحقاب
وجاء عصرك والأيام مقبلة
فكان فيه لفيض الكفر انضاب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه
إيجازه ببلغ القول اسهاب
قرع الظبي بالظبي في الحرب يطربه
لاقينة صنع باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه
لقد تجلى الهدى والشرك منجباب
بفتح القدس لاسلام قد فتحت
في قمع طاغية الاشرار أبواب
ففي موافقه البيت المقدس للـ
بيت الحرام لناتيه وإعجاب
والصخر والحجر المثلثوم جانبه
كلاهما لاعتبار الخلق محراب

نفسى من القدس صلبانا كما نفيت
من بيت مكة أزالام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان. عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من
ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم ما اخترته منها هنا،
وزدت عليه ما لم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم
ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها
أبا المظفر أنت المجتبي لهدى
أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلوراك وقد حزت العلى عمر
في قلة التل قضى كنه عبرته
ولوراك وأهل القدس في ولته
أبو عبيدة فدى من مسرته
غداة جزوا النواصي في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرتته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه
الملك المظفر سام في مبرته
وفي السلالة عثمان يؤيده
علا على ايشان نصرته
وكم لديدك ذووق ربى رقواشرفا
وكم بعيدرأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتخ^(٥٣) ما بين البزاة لقى
ملك الفرنج أخيداً بين عترته
أما رأيت معالي يوسف بسقت
حتى رمت كل ذي ملك بحسرتته

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته
واستقبح الرجس ممنوّاً بمشهده
فاستفتح القدس محشوّاً بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
'بوقعة التل' واستشراء سورتته
يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيماً مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانض الجيش لا يخصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور،
الوزير العزيزي، قصيدة، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر
الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها
وسياقي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيّق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف
الجدّ في هذا الزمان مبین
والهزل فيه مع الغوايسة مخّنف
بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والوائثق
منصور والمستظهر البر الوفي
شدّت قوى أركان ملّة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملك إذا أم المملوك جنابه
لاذوباً كرم من يؤم وأشرف
وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه
وقفوا بأعظم من يصول وأراف
مولى غداً للدين أكرم والد
حذب على أبنائه مترف رف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه
أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم
وأقام في الأنجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه
يروى أحاديث العوالي الرعف
ملك له في الحرب بحر تفقه
ولله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أنزل في الجهاد مفصل
فلذاك يقرأه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسيما كان من
عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه
وسيوفه خلق ارضى وتعسف
لله يوم عروبة إذا عربت
ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة
ذهبت بمهجة كل عالج ألقف
آفاتهم وافت بأخذك منهم
يا فافكم من حسرة وتأسف
أومارأى الأعلاج حين دعوتها
بلسان سيف في الكريمة ملحف

لم تستطع عصيان أمرك بل أتت
منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن بأختها
وكذلك حتى الأربعين ونيّف
ماللسوا حل غير بحرك حافظ
بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحتته
فزهى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمته
وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل
من عامل وبمشرف من مشرفي
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني
وبناظر الرأي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها
واستأد فرضي جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة
وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثارها
وصدورها بل عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقلك موقنا
أن الإله بها تؤمليه حففي
هم فتية الأتراك كل مجفجف
يغشى الكريمة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة
لا ينظرون إليه من طرف خفي
إن صبحوا الأعداء في أوطانهم
تركوا ديارهم كقاع صفصف

أنت اصطفتهم لنصرة ديننا
الله در المصطفى والمصطفى

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحتته» حكاية حسنة
لا ثقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال:
قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة
ثلاث وسبعين وخمسة، نال: رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً
على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:
ملك الصياصي والصواصي ناصر
للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما
يطوى الطراز له ويقتل قيصر

قلت: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال: وجدت على حاشية كتاب يروى
عن خطيب كان بالرقعة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة
أحدى وثلاثين وخمسة، فذكر لبيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين
سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة، والمعني بالطراز الأخضر بلاد
الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا
وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك
سوى صور بين صيدا وعكا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه فتح
هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي
قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة
الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم
بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمهم
له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها:

جنـد السـماء لهذا الملك أعوان

من شك فيهم لهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن

وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما

له سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده

صيدا وما ضيفوا يوماً وما هانوا

كم من فحول ملوك غودروا وهم

خوف الفرنجة ولدان ونسوان

استصرخت بملك شاه طرابلس

فخام منها وصمت منه آذان

هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ

لام يطوى ويحوى وهو سكران

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ

إسلام أنصاره صم وعميان

فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم

بأمر من هو للمعوان معوان

للمعوان أذخرت هذا الفتوح وما

سمت لهمم الاملاك مذ كانوا

جباه ذوالعرش بالنصر العزيز فقا

ل الناس داود هـ ذأ أم سليمان

في نصف شهر غدا للشرك مصطلما

فطهرت منه أقطار وبلدان

فأين مسلمة عنها وأخوته

بل أين والدهم بل أين مروان

وعدّ عما سواه فالفرنجة لم
ييدهم من ملوك الأرض انسان
لو أن ذا الفتوح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما
ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يقيقك لاسلام تحرسه
من أن يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة
فالكفر في سنة والنصرة يظان
ياجامع كلمة الايمان قامع من
معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي
المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى مناماً بعينى أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقهامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكه هم في القيود مصفود ولم
يرقبل ذلك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتح الشام وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به
يختال والدين باب به تبخر
نثر ونظم طعنه وضرا به
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلي بسنابك
تحذى نعال الأودمساء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلي وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنهن اتتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمد إلى سيفك الباتر

وكم لك من فتحة فيهم
حكمت فتحة الأسد الخادر
وكسرت صليبهم عنوة
فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأضيت جددك في غزوهم
فتعسا لجدهم لعائير
وأدبر ملكهم بالشام
وولى كاسهم الدابر

جنودك بالرعب منصوره
فناجزمتى شئت أو صابر
فكلهم غرق هالك
بتيار عسكرك الزاخر
ثارت لدين الهدى في العدا
فأثره الله من ثائر
وقمت بنصر اله الأورى
فساك باللك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً
فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم
وترفل في الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجها
على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حق من
سيرضيك في جفك الساهر
فتحت المقدس من أرضه
فعامت إلى وصفها الطاهر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخير الله هذا الفتو
ح من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر
محببتكم ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقى القصيدة تقلم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن
علي بن محمد الساعاتي:
أعيًا وقد غايتنا الآية العظمى
لأية حال تدخر والشرو والنظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسفل الصما
جبا مكية الحسنى وشى بي شرب
وأطرب ذياك الضريح وماضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحتها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أباد واؤه
غير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جلدان باسما
وأسننة الاغما دتوسعه لثما

سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان إلا ساحا صاذا فاليها

وله من قصيدة أخرى في السلطان:
عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقن طردا لا تخاف أناتاه
هو منقذ البيت المقدس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته
أمشت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزمي في الحروب مسددا
لازيغ به بخشي ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويشرب
ولك الفعال كثيرة حسناته
هذه سيوفك حرمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:
هو الفاتح البيت المقدس بعدما
تحاته سادات الدنيا ومسودها
فضيلة فتح كان ناني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض أرب السلطان:
الست من القوم الأولى بسوفهم
نوا صخرة البيت المقدس مسجدا

وللعهد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقدس أعضل داؤه من قبلكم
فوفيتهم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على ثمني فتحه
زمننا وغلتهم به لم تبلل
وأتى زمانكم فأمكن آخرنا
ما قد تعذر في الزمان الأول
ما كان قنط ولا يكون كفتحكم
للقدس في الماضي ولا المستقبل
أوجدتم منه الذي عدم الوري
وفعلتم في الفتح ما لم يفعل
أيدي الملوك تقاصرت عن مفخر
طلتكم به فبلوا البعض الأمل
أحييتهم شرع الكرام ولم يزل
نصر المحق بكم وقهر المبطل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكم لبني صلاح الدين فينا
على الإسلام من حق تأكيد
وإن لهم على الأملاك طرا
بفتح القدس فضلاليس يجحد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هم الملوك ذوو بأس ومكرمة
إن سألوا أمنوا أو حاربوا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الوري فتحت
عكا وصيدا وبيروت وأرسوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من
جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير
الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله
ملك به وأبيه يفتخر العلاء

ويفوق فخرهما السها والفرقدا
ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا
أوان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالأسد الهصور إذا عدا
أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال مثله عمر الردى
بل مالك الدنيا ومالها رجبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيديلقاهم إذا
رفع السراق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا
من بعد ما درست معالم سبله
دهراؤه حرمة ههنا أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء، ولم يكن السلطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد: لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً واسعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ما حوله من الأبنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، واثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس، وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القراء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاولاد، وعبد الواحد،

ووجد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي
والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد
والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر،
وذكر البعث والمحشر، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء،
وتناظر الفقهاء، وتحديث الرواة، وروى المحدثون وتحنف الهداة، وهدى
المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة
المتخصصون، ولخص المفسرون، وفسر المخلصون، وانتدى الفضلاء،
وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة،
المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالخصافة، فما فيهم إلا من خطب
الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظاً رائقاً، وسوى
كلاماً بالموضع لاثقاً، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض
عليّ خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح
وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه،
وسال من الإلتهاج عليها عرقه، وما منهم إلا من يتأهب ويترقب،
ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع، ويتشوف ويتشفع، وكل
قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أحاسه أسداسه، ورفع لهذه
الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولا يبين، ولا يخص ولا ينص، ومنهم من
يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت
بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع
شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلاً الجامع،
واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لركة القلوب
المدامع، وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت
بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال
الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه
الدعوات، وتصيب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ
الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الذي فيه انتعش الإسلام وانتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة،
والعصبة الطاهرة، والامة الظاهرة، وما أكرم هذه النصره الناصرية،
والاسرة الإمامية، والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة
الصلاحية، وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التي شرفها الله
بالتوفيق لهذه الطاعة، وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب،
وتفاوضوا في التفويض، وتحذثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلى،
والمنبر يكسى ويحلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج
تردحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج مافي عرفات للحجيج،
حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وحيعل الداعي، وأعجل الساعي،
فنصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز
إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن
يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقيين بتقدمه عرقى، فأعرتة من عندي
أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة،
فرقى العود، ولقي السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف
المعشر، وخطب وانصتوا، ونطق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب،
وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبته وخطب بموعظته
وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول
تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا
للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل
والإحسان)^(٥١) ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من
أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما
قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع، واطرد
القياس، وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير، فجلس
عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا ومن
سعد ومن شقى، ومن هلك ومن نجا، وخوف بذي الحجة ذوي الحجا،
وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات مادجا، وأتى بكل عظة للراقدين

موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون وعج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون وأتاب المتحويون، وصاح الثوابون، وناح الأوابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قبلت، وفرص من الولاية الالهية انتهزت، وحصص من العناية الربانية أحرزت، وصلى السلطان في قبة الصخرة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة، ثم رتب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هذه الفاظ العماد في هذا الفصل من كتاب الفتح، وذكره في كتاب البرق بعبارة أخرى، تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ماتقدم أيضاً بغير تلك العبارة فائدة، فإنها معان جليلة، كلما ذكرت جلت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العراض، وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأذناس، وكس ما في أرجائها من الأنجاس، وقد كان سبق أمره من مبدأ الأمر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداوية بنوا غريبه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال؛ وجانباً هرياً للغلال، فأمر في العاجل بكشف قناعه، ورفع الوضع من أوضاعه، ونقل ما وقع من انقاضه، ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ما قدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعاونوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مزاحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقلاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة، بادية على أساريه أسرار سروره بالأسرة، وامتلات تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وأن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلست القلوب وخشعت الأصوات، وحسنت الظنون، وعين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرغ تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد وأحمد، وأدت المعاني الشريفة ألقاظه، ونبه الأفاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما افتض به ابكار الاستعارات بأبداع البراعات، وأبرع العبارات، وصدق بالصدق، ونطق بالحق، وفاز بالسبق، وحاز على فضلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضخم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سبحان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولو عاشا لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمر المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبه ورفع، وامتلأ صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفى إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقي تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلق بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارتته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانتته، والظفر وإيانتته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامه وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وما أعده الله لهذه الطائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته ما لا يبلغ إليه نطق اللسان الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجاح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً وسوماً راجحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بأفشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)^(٥٥) الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)^(٥٦) (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)^(٥٧) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)^(٥٨) الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)^(٥٩) (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)^(٦٠) (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض)^(٦١) و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)^(٦٢)

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والأمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمدته على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى. وعرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدره المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدره ما يغشى. مازاغ البصر وما طغى) (٦٣) صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منزلل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه (٦٤) وإماطة الشرك عن طرقة، بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم ابراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (٦٥) وقال: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) (٦٦) وهو أول القبليتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لاتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولاتعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي

لايجاريكم فيها مجاز، ولايجاريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش
ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات
الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية.
جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيرية
والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء .
وتقبل منكم ما تقربتن به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار
السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى
بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم
لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت
بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عيننا الأنبياء
والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح
عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة
من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء
أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في
كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده
ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية.
أليس هو البيت الذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه
الكتب الأربعة المنزلة من الحكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي
أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين
خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن
يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلاًن وغضب عليهم لأجله فألقاهم
في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه
بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان
قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم
بها أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهويتكم جنده. وشركم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطم عن طرفهم فيه من أذى الشرك والتلثيث. والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم. وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم. واحذروا من اتباع الهوى. وموافقة الردى. ورجوع القهقرى. والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم إن هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلاد. لا والله (ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٦٧). واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل. والمنح الجزيل. وخصكم بهذا الفتح المين. وأعلق أيديكم بحبله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً) (٦٨) (والذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) (٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشركم. جدوا في حسم الداء. وقطع شافة الأعداء. وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله. وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادى الأيام: بالثارات الإسلامية والملة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر. وغلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها. وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول. وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في

قبالة الواحد منهم منكم عشرون. وقد قال الله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)^(٧٠) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجه، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)^(٧١).

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحمي عن دينك المدافع، والذات عن حرمك الممانع، السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصليبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبا المظفر يوسف بن أبوب، محيي دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للبايان حوزته، وانشر في المغرب والمشرق دعوته. اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلي المؤمنون. فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقتها ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه وأنفذ في المشارق والمغرب أمره ونهيه، اللهم أصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وأثب سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم. اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي
الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: (رب أوزعني أن
أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً
ترضاه)^(٧٢) (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)^(٧٣) ثم ماجرت العادة
به

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسبه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ما أمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظر، وكان من حديث احداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعائه، وقد أوقع في روعه من النور الفاضل من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملمهين، وعباده المحديثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاختريني، من ضيعة تعرف باختريين، لم يلف له في براعته وصنعتة قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل، و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيئات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيوان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فإله هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملاً^(٧٤) ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين ماثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب، ويزيده قوة عزمه جداً، ويمدّه بحياء الحياة الربانية مداً، وقد طهره الله من العيب، وأطلعته على سر الغيب، ونزهه من الريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركته، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه، وهو الذي سن الفتح وسنى النجح، واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق فاحتيج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر، وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله، وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتاب البرق : وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب بانخاذ منبر للقدس، وتعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وابدعوا في تركيبه الأحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزايئه ألوفاً، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صوان الحفظ مقروباً، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالندر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه القدسي، فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).^(٧٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحلّه ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك، و كان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدو بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ما ذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها، و عمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهياً أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقريباً إلى الله تعالى بما بيديه من طاعته ويخفيه، وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخراج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أحد ذلك من الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير، قال: وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بماخوذ من الحروف ولا هو من قبيل

الكرامات، أيضاً فإن الكرامة لاكتسب بحساب، ولافتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب لما أدار الحساب على القراءة الأخرى الشاذة التي هي بفتح الغين من (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعتّوجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملّؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولا مطمحا، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسييح، وكان فيها صور الأنعام منبته في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ، وحسّر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين، وحببت بالقبل، وفديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانّت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب
حزوزاً، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج
نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها دعاً حتى قيل إنها بيعت
بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض
ملوكهم إشفاقاً عليها لثلاث تمتد يد ضمير إليها، فأبقت حزوزها في
القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات،
وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد،
وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف
عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى
مصاحف وختامات، وربعات معظمت، لاتزال بين أيدي الزائرين على
كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت
المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين، فما
أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان
الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع،
فهنالك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له،
لواقسم على الله لأبره، وهنالك كمل من يحبي الليل ويقومه، ويسمو
بالحق ويسومه، وهنالك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان
ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفتة لتهجده الأوراد والأفكار،
وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها،
وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال: وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة،
وفيا يجمع لهم وذ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن
وفعل ما أمكن، وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع
بكر، وتقى الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرغد مال، فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقية، وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عما يصل من المدد.

قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً، وهو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان يتنابها فيهما الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأثقياء الأخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليها وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما أدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون* وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)^(٧٦)، فباعوا ماتهياً لهم على البيع إخراجهم رخيصاً، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدتهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعادته البطرك منه عاطلاً، وتركه طلالاً مائلاً، فقلت للسلطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم؟ فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفي ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر ألفاً واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ما ذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا، ويؤمنوا ولا يخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعزّسوا وخرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمرأى الفرنج ومقدميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، ورحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها ولا إمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا: إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال: وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل مال الكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عدله على بذله، واستكثروا ما أفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي الاستحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للمال، فقال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في نأديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أيأديه، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولى الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفرنّ بهالم يحوه ملكك
أبالمظفر حظا خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سنن عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوعا له وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبالمظفر فاهنا حظ منتخب
أخرى الزمان لدين كاد يتبتر
زهدت فيما سبى الأملاك منك درا
علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال، ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاؤها
بني أصفر بالسرائعات اللهازم
فتسبي فلسطينا وتجبني جزائرا
وتعنوا لها الأملاك شرقا ومغربا
بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة
هنأته فيها بالعافية منها:

فيا ملكا لم يبق للدين غيره
وهت عمدا لاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريقك في الشام طائر
فقص جناحيه بأقصى القوى قصبا
خصصت بتمكين فعم العذارى
فإنهم يا جوج أفرغ بهار دما
إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ
مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى وهمتك العلى
وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فما هو إلا أن تمهم وقد أتت
فتوح كما فاض الخضم الذي ظما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة
فمن ذا الذي يقوى لبناؤها دما
وما كل حين تمكن المرء فرصة
ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما
وليس كفتح القدس منية قادر
وما أن تلقاها سوى يوسف جزما

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذاحين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا وهم
من غير تيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قدتم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلاب واللان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالوث رهبان
ولا بن أيوب في الافرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك الأرض من ملك
كأنه ملك في الخلق حنان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:
في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاستبار إلى الداوية التأموا
كانهم سدياً جوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجباً بسيرتها
وفي المقادير ماتسلى به السير
ياوقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفتم من جمعها بشر
وياضحى السبت ماللقوم قد سبتوا
تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
وياضريح شعيب ما لهم جثموا
كمدين أم لقوار جفا بها كفروا
حطوا وبحطين ملكاً كافياً عجباً
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترساً
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الأبرنس في دمه
فمات حياً وحياً وهو يعتذر
رأى مليكاً ملوك الأرض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدت به الأعيان هيئته
يختلفي وهو في الأذهان مشتهر
تقدم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علامن قبلنا صدوروا

أما رأيتهم فتوح القادسية في
أكناف لويبة تجلي وذاعمر
والحق يعرس والطغيان منتحب
والكفر يطمس والايان مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبي به
في فتنة البغي لاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت
له الرواة بما لم ينمه اثر
أعين اسكندر بالخضر وهوله
عون من الله يستغني به الخضر
وصنع ذي العرش ابداع بلا سبب
فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
بين اسباياه تجلي في دمشق إذا
ملك الفرنج مع الاثراك محتجر
ازاءه زعماء السالحين معا
مصفيدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا
وحوله كل قسيس له زبر
ونحن في بنا وذا طير صحيفته
بفتح عكا التي سدت بالثغر
تغزو أساطيلنا منها صقلية
فتذعر الروم والصقلا بوالخزر
من ذا يقول لعل القدس منفتح
إليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها فخذ سفنا
من باب عكا الى طرطوس تنتشر

يسبى فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض أبنائه بالقدس متدب
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
برايية تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الاجسام لاوزر
قالوا اطلت مديحافيه قلت كما
بدأت فالصب للمحبوب مذكر

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها
القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها
تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى
وبسطه أمر أعربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب
وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال أبرمت لأسارنا
فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا
فبعناهم بالرخص جهرا على النداء
وجروا جيوشا كالسيول على الصوا
فاضت غشاء في البطاح ممددا
وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا
إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا
فأودع سجننا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقى بدجلة خيله
فما ورد الاردن إلا مصفدا

فكم واثق خجلان فهقه خصمه
وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من اسبان يحمي قمامة
فكان تقضى ملكه قبل يتدى
فما عقد الرايات إلا محلا
ولا حلل الرايات إلا معقدا
ووقعة يوم التل إذ قبضت به
جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سراق ذلثة
ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه
وينساق ما بين السبايا ملهدا
يباعون أسرا با شرائح أحبل
كشكة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق في ماتم
يسرونها إلا شجى وتنهدا
ألم تبر للسلطان صدق نذره
دم الغادر الابرنس فاقتيدار بدا
وباشر بالقتل وسط خبائه
وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا
فأدركه الموت المفاجىء مكمدا
وما طرق الاسماع من عهد آدم
كملحمة التل التي ثلت العدا
أتوا وادي ما زال ينفي خبائثا
ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى

به جثمت أصحاب ليكة وهي في
ذراه ذافيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا
لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا
واعدى جنود الرعب تردى عداته
وسلم جميع المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل
سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بدر النابلسي:
هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف الله أقوام بما نلدروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا
الله طيب العشا يا منه والبكر
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حافاله السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
لإسلام من بعد طي وهو منتشر
يانور مسجده الأقصى وقد وقعت
بعد الصليب به الآيات والصور
شتان ما بين ناقوس يدان به
وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

يامالك الأرض مهدها فما أحد
سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمرا
الالتعلوبه أعلامك الصفر
أضحى بنو الأصفر الانكاس موعظة
فيها لأعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة
على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها
حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
هذا الذي سلب الأفرنج دولتهم
وملكهم ياملوك الارض فاعتبروا
مراكز ما اختطهاها الخوف مدمائة
عاما ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أصرح بأسماء البلاد فقد
أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك مجمل قولي عن مفصلة
في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:
المم بدار الناصر الملك الذي
في كفه للجود سبعة أبحر
فإذا مررت بملكه وفتوحه
فاسخر بما يروى عن الاسكندر
وإذا بصرت بجاشه وجيوشه
فاحث التراب على ذؤابة سنجر

وللشهاب فتیان الشاغوري من قصيدة:
كسرت على كسرى لعبدك دولة
قصرت مهاتباتها تطاول قيصر
أهدى صلاح الدين لاسلام اذ
أردى قبيل الكفر ما لم يكفر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدموا في قديم العصر
خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاء بالطراز الاخضر
راياته صفر يردن وتنشي
همراتج نجيع آل الأصفر
لم تمدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
بيت المقدس هول يوم المحشر
وردت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لعشر الاسلام بيـ
من الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ
حجرا المفضل عند أفضل معشر
فكانه انسان عين صورة
يلقياك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيماً بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز وردة إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصره وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الأفضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروح والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهناً ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتولييه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر ما لم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فأشاروا على السلطان بالرحيل لثلاث تفتى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى، و حسام الدين طهان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لثلاث يضيع ما تقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولا تعجلوا فآظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لثلاث يناله العدو، ورحل في آخر شوال وهو أول يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدردم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاوي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصناً صفاً وكوكب، وكان في صفاً جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاستارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفاً جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم بسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الأمير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفر بلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمين فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلفت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يربط كوكب في خسارة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبين قد

امتنعت عليه هونين، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفذ الأمير بدر الدين دلدريم، ففتحها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين، وكان بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رعيتيه، ثم دخلها وسكن بالقلعة وسكن الأفضل برج الداوية، وولى عكا عز الدين جرديك، ووقف دار الاستار نصفين نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصوفية، ووقف دار الاسقف بيارستانا، ووقف على كل من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق و قدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنئ السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجاح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلا من يعترف بيمينه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همدان، وأذربيجان، وإران، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتاك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتاك ايلدكز المستولى على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لا يكون في بحر سلطاننا جدولاً، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسباح مشغوف، ما يفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، والخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للأخرة دنياه، فلا جرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جلداً على الجلاد، فإنه

بأشرف نفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على
الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه،
ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يحف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد
لم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مض الحر وعض البرد،
بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم،
وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما
تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام
وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي
هي في النصر نجدة الاسلام
في يمين السلطان ان جردتها
أشبهها صواعق في غمام
تنشر الهام كالخروف فما أشـ
به هذي السيوف بالاقلام
في محاريب حربه البيض صلت
وركوع الظبي سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما دخل بينكم إلا
كدخول المروء في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض،
أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة
برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت،
وسعايات في السلطان شعنت، وذلك في شؤال ونحن على حصار
صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر،
وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين
أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشري به إلى
العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرحمة والرفقة إلا من هو عندنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع، فإن الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع، فقال هذه نصره مبتكرة، وموهبة مبشرة، بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيراً، ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيراً وكان في الخدمة شاب بغدادي من الأجناد، وقد هاجر للاسترفاد، وتوجه بعد وصوله، وتنبه بعد خموله، فسأل في البشارة إلى بغداد، وزعم أنه يداوم إليها الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لا يحصل له وقع، ولا يصل إليه نفع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفر في هذه النصر الكبرى كبير، ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواء الفتوح والحروب، ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب، ووصل البشير الجندي فحقوقه وماوقروه، فإنه كان عندهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظروه بتلك العين، وحبوه بما يليق به من الرقة والعين، ونقم على السلطان إرسال مثله، وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه، وقال في سكره وحالة نكره مانعرض عن ذكره، فخيّل وموّه، وتنكر وتكره وظن أن لكلامه أصلاً وللفظه منا وصل، وانبيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهالاته، وتجنني على السلطان بإرساله، وطرق إلى هداه ما انكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً، وطلبوا الشمل استسعادة بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر، نعت الإمام الناصر، ويدل بهاله من القوة والعساكر، فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه، وبرز الامر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشف سر الأمر بالمراد، فإن أخاه هناك مطلع على الاسرار، وهو منتظم في سلك الاولياء الأبرار، وعوّل عليه الديوان في السفارة، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادياً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهر سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدمه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدمه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل. والمظفر. والافضل. والظاهر، ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يجبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف، وقال: أما ما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمي لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وما عزمي إلا استكمال الفتوح لأمر المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولا رفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولا مؤتم بالمرء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المباحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التناهي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن بما أضحك بثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاه في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سكير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع ، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرض سوابقه وأواخيه .

ومنها: ما قضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ما أوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستئلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لأقوله انكاراً لجلال مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعاده أن يهجن مساعيه الغر المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطلاً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفراً،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)^(٧٧)، فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصده فثبت، وأي نار أوقدوها فما خبت .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللرأي الصلاحي ما يزيد علوه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابن القادسي أن الجندي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي، قال: وكان صبيّاً كثيراً الادبار، مشمراً في دروب بغداد، ثم توجه إلى الشام هارباً من الفقر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الدين بالانكار عليه، وقيل له: أما كان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الديوان، فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقبل عذره، وأما ابن البوشنجي فإنه حين وصوله إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر عليه، فلما مضى الأسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فتح بيت المقدس في هذا العام، فالحج والجهاد ركننا الاسلام، فاجتمع جمع جم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدّم شيخ أمراء الاسلام الكرام، فودعه السلطان على كره من مفارقتة، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقتة، فقال مامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قد بلغ والشيب قد أنذر، والفرض قد أعذر فاغتنم فرصة الإمكان قبل أن يتعذر، فمضى والسعادة تقوده، والشهادة تروده، حتى وصل إلى عرفات، وماعرف الآفات، وشاع وصوله، وذاع قفوله، وضربت طبوله وسالت سيوله، وجالت خيوله، وضربت خيامه، وخفقت أعلامه، فلما أصبحوا نقرت كالعادة نقاراته، ونعرت بوقاته، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه فأوقع به وبأصحابه وأبلاهم بجراحه ونهايه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكد اسبابه، وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا، وهتكت أستارهم وافتضحوا، ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدّم إلى خيمته، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معه إلى منى فمضى ودفن بالمعل، وتم ذلك بقضاء الله وقدره في ثقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه، وكيف عدا على الحاج العائد بالله وسفك دمه، فكتب محضراً على ما اقترحه بعذره فيما اجترحه، وألزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكرهين غير مشتبهين، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى، فلما انتهت الحالة إلى الخليفة أنكرها انكاراً

شديداً، ونسبها إلى طيش طاشتكين، ولم يجد له رأياً سديداً فلا جرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعد سنين، وحبسه بها وأطال سجنه ، ثم عفا عنه بعد مدةً مديدة، وشدةً شديدة، وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها، وولى اماره الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته، لامه على ترك الخزم واضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجنة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عز الدين ابراهيم في بلاده، مقامه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمد بن القادسي في تاريخه، ونقلته من خطه: أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علماً على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحاج الشام، ونهب البعض البعض، وجرت جراحات، فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة في ذلك، ومات ابن المقدم بمنى في اليوم الثاني، ووصلت النجابه من مكة فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرئ ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شؤال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، وكان كاتباً بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة.

قال: وفي: خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بابن المنى، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة احدى وخمسمائة، وتفقه عليه جماعة من أئمة الحنابلة، كالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيخ الموفق عبد الله

ابن أحمد بن قدامة، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصح عبد الرحمن
ابن نجم بن عبد الوهاب، وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي
وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكران بن نور الدين محمد بن قول أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة بإحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأول من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلج والديباج والشوي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدته ترها مجوهر، وكان إذا شاهد السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شداد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيء أمرها، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلّى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أنني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قويا، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأول ، وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى دمشق عائداً من القدس ، فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام ، وكان له غائباً عنها أربعة عشر شهراً .

قال: وفي ذلك اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنهم قصدوا جبيل ، واغتالوها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سير إلى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيل ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة ، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني ، ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب ، ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه رحمه الله في هذه المنزلة فإنه كان قد سير إليّ إلى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص ، فخرجت على عزم المسير إلى الموصل متجهزاً لذلك ، فوصلت إليه امثالاً لأمره ، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته ، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه عليّ وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد وحاصره يوماً يجسه به ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية للعساكر بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إننا داخلون إلى الساحل ، وهو قليل الأزواد ، وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف لي أنه

ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلاذي، وكان الله تعالى قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيتته وحب الجهاد فأجبتته إلى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى، وهو يوم دخوله الساحل الأعلى، وجميع ما حكيتته من قبل إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهدوه، ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به ممن أثق به خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه أثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكد يجيب فقبل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتديرها الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيد العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شريقها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعه، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهاها من البلاد التي كانت بأوضاع الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة، وهو أخو عز الدين فرخشاہ لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدها، وكان الصفي قد بنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بالقلعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسناها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان، وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، وما خلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وما جئنا دمشق لنقيم، وما نروم أن لانريم.

قال: ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: وما أحسن ما قال ابن الذروي في الآراء الفاضلية من قصيدة مدحه بها:

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي
فلا ينتحله كل غضب ولهزم
وإن كان فيه للأسنة والظبي
مساعدة فالفضل للمتقدم
تشير على الإسلام منك فإسرة
لها حزم طيب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها
قواطع بترأ ونوافذ أسهم
ألا جذا فتوح نشرت لواءه
وقلت لخيال الله يا خيل أقدمي
وقمت وقد نام الأنام مناجيا
بمولاي نجح المسلمين وسلم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في ابراج الاطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصوغه، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً كأنها هو خرط من الصندل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بها في النفوس، وتكررت المشاورة في الموضوع الذي يتبدأ بقصده، وتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وانها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أول ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج ما فيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية

وعوّل عليه فيها، وقال: إن الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يذهب الزمان، ويفوت الامكان، والمسلمون بجبله مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قوله، وأصغى له ورد طوله، وكان قد وصل إليه مقدمو جبل بهراء، فوفر لهم رواتبه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتسبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ما قدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم ما اشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقواه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبئة لقاء العدو، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدو، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها وماها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنظرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروح كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يجرها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محققاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقية، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاستتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولا طريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاء ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدم عليها طاغية يقال له المرعريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفوعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لا يظهر له رأي ولا يرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصنيفها وتكثير ستاتها، وأجلس الرماة من ورائها فما زال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يمينا إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الأثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطئ البحر، وجانبها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جيلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنها، واحتتموا بقلعتها، فما زال قاضي جيلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جيلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جيلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسراثيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جيلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جيلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد: وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محمداً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فإما رأى عدوّ الله ما حل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لا يبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مآمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد: رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيرته وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ما أخافه.

قال: ورأيت به بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكتها مخرمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصبية، وأفاقها مضية، وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحو سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاء مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البناء، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان، و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوهوا أعلامها، وجروا لشامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسه، وحكموا بعد الغنى بإفلاسه، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلّى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعته متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبهة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكننا زاد، سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحبالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت، ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورد إلى سكانها البسكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيتها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقتها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضيعاً وأزينها، ومافي البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه: أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطانك، وظهر احسانك، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة، لملكتم قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقانيم، وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم، فقال له السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائلون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكرهه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد في السور من الترقى إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتد الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليتها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق مائله لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سخاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأيمن، والسمو الأيمن، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردة الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجدة العالي، والجدة المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجنادريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدايين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأثار في الفضائل وإضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاء، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان ببادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتوا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلعة، وتفادوا من الخوف لا من القلعة، وصاحوا الأمان، وبدلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قرزنا عليهم مثل قطعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النواب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندر، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيرين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضع المنهاج.